في مرايا حسين عسيلي
عسل العمر رماده

يمسح الشاعر حسين عسيلي، وقد هبَّت رياح تشرين على شجراته، مراياه كي يُبصر تعب الأيَّام، فماذا يرى؟ وكيف يرسم لنا رؤيته؟

منذ أن بدأ الشاعر إنشاده كان يرى اعوجاج الطريق... وكانت راحلته تجمح بعكس سير الزمان، فحدا للرَّكب الحزين في أربع مجموعات صدرت على التوالي: «تعذِّبني شمس الجنوب» و«مرايا الجراح» و«حين تهجرني الموانئ» و«ستون جمجمة... ووردة»، الصَّادرة مؤخراً عن مؤسسة «العلاء».

قمر الخيبة

يلاحظ أنَّ محطَّات الشاعر، في رحلة العيش، تتقدَّم في منحى تصاعدي... فمن العذاب في الوطن ومن أجله، إلى الجراح/المرايا التي يراد لها أن تكشف مخزون اللحظات الهاوية، إلى الإحساس بالوحدة، والقطيعة... إلى المجموعة الأخيرة، حيث يتبلور الإحساس بسنيِّ العمر في حالة ترى إلى الستين منها ستين جمجمة، تنسلُّ، من بينها، وعلى غفلة من حرَّاسها، وردة، هي الشعر الذي يبقى، على الرغم من كل شيء، عسل العمر المحلِّي رماده.

يبدو أنَّ الشاعر، وهو يتَّخذ الستين راحلته، كما يقول لابنته دلال (ص. ١٦)، لا يزال يحسُّ الشهوات إلى «القمر الطعين»، ولكلٍّ، في هذه الدنيا، قمره الذي ينير عالمه ويجعله أليفاً، ويحقِّق لصاحبه توازناً وسيادة على بعض أشياء العالم.

تعوي الشهوات، ويكون هذا العواء قوياً إلى درجة التساؤل عن سماع

الآخرين له، لكن الذباب الذي ينتهك الثواني يحول دون التلبية، وتغدو بوابة الجسد مكفَّنة بالغبار، غبار الدروب التي تتناوب فيها الحفر على الحفر.

في هذه الحالة، يسأل الشاعر: من أين يأتي الصهيل، والذئب، زارع الحفر، يلتهم وجبته من الأحصنة التي سقطت قبل أن تباشر حاجتها إلى الميدان وفيه؟ يعيش المسكون بعواء الشهوة إلى «قمره» الخيبة: اللاإرتواء، فيحس أن عناكب الخرائب تزحف على صدره، وتضيِّق الخناق، فيكون عزف قيثارته عويلاً يزيد الدجى السائد قلقاً، فكأن عويل الشهوات في الكيان يتجسَّد عويل قيثارة، أي شعراً، ولكن العويل الأخير/الشِّعر... يبقى وردة تلك الأعوام الستين/الجماجم.

الإحساس الجنائزي

يتجلَّى الإحساس الجنائزي في عناوين المجموعات، كما رأينا، ويتجلَّى، أيضاً، في شكل أكثر حدَّة، في نصوص المجموعة الأخيرة. ويمكن، بالاستناد إلى المعجم اللغوي: الألفاظ والتراكيب، على سبيل المثال، أن نتبيَّن ملامح إنسان وجهه تجاعيد الصخور، تعبيره عويل قيثارة يزيد الدُّجى قلقاً، يحاور غراباً في دمه...، يقرأ، بعد انتظار طويل، «الفاتحة» على جهد غدا «فهرس قبور»... يواكبه الخفاش والغراب والبوم، فينشد التقلُّب على رمل الفجر رانياً إلى نهدٍ يلوح ويحرق، فيغدو القلب دخاناً يقلع الطير منه، فتكون دروب العمر «درب الجحيم»...

يخاطب الشاعر هذا الإنسان، في إشارة إلى الخلل الاجتماعي الذي شكل خيبته، فيقول: «زمانك آتٍ من الخلف/فكن فهرساً للقبور/وكن حجراً في مقاصر روما، وبوابة لانزلاق النعيم» (ص. ٢).

القوَّة السَّاحرة

إنَّ فرص امتلاك «القمر»، وكما قلنا: لكلٍّ قمره، موجودة، ولكنه مدفوع عنها، وتلتوي بها الطرق،... فيوظف حجراً في مقاصر «روما»، وينزلق عنه

النعيم... وهذا ما يجعنا ندرك دلالة قوله: «نظرة ساحرة تبعثني من رمادي» (ص. ٩٤).

إنَّه يحتاج إلى ما يعيد تشكُّله وبعثه، وقد حدَّد القوة القادرة على ذلك بـ «نظرة ساحرة». إنَّ لهذه القوة دلالتها المباشرة على مستوى الرغبات المقموعة، وخصوصاً إن قرأنا قوله: «حطَّ الرِّحال على النهدين فاحترقا»، وأن لها، أيضاً، دلالة تعبر إلى مستوى القدرة الساحرة التي تحقق الذات في مرحلة من العمر، يلتفت فيها الإنسان إلى ما أنجزه، بعدما شعر بأنَّ رياح الخريف بدأت تهبُّ منذرة بالرحيل، إنه يرنو إلى تلك القوة الساحرة، فيقول:

«دقَّت على ضلع/ تشريني/ فأيقظتني من الرَّماد/ حنين هبَّ/ واعتنقا/ وعلقت في خيام الريح/ بسمتها/ محاوراً لغراب في دمي/ نعقاً...) (ص. ١٥ و١٦).

إنَّ هذه القوة التي تدقُّ، وتوقظ، وتحاور غراب الأيام هي وردته... أو وسيلته للخروج من واقع يخنقه، يقول:

دقيقة من مرايا الصَّحو، يا زمني   أنسلُّ كالبرق من جلدي وأنعتق

ملامح عالم بديل

تعطي «مرايا الصحو» «صحو الكلام للعصافير»، فترتسم ملامح عالم بديل يمكن للشاعر أن يكون سيِّده، ولا نجدُ صعوبة في اختيار ما يشير إلى هذا العالم، فنقرأ، على سبيل المثال:

«جملة تنسلُّ من حرَّاسها/ تحمل العطر لعشَّاق الخليل/ ثمَّ تأتي بالبداية/ تفرش الجدران بالبرق لكي يأتي المطر/ تنسج الليل خياماً للغجر».

تنسج الجملة المنسلَّة من حرَّاسها، وهي الوردة/ القوة القادرة، عالماً بديلاً من ذلك الآتي من الخلف، يتَّصف هذا العالم بالانطلاق، بالخروج من قيود المجتمع وقوانين صيرورة أناسه... فيبدو كأنَّه عالم الطفولة على مستوى المجتمع البشري، وقد أشار الشاعر إليه غير مرَّة بـ «الغجر». ولعلَّ إلحاح الشاعر على تكرار هذه اللفظة يؤكِّد رغبة واعية، أو لا واعية، في الهرب من

واقع كانت سنوات عمره الستين فيه جماجم، إلى واقع بديل يستطيع أن يحقِّق فيه ذاته، فلا يكون قمره طعيناً، ويمتلك أشياء عالمه، ولعلَّ هذا الفهم لدلالة «الغجر» في لغة عسيلي الشعرية، يجعلنا ندرك معنى قوله: «للشعر مملكة الغجر» (ص. ٣٦). فالشعر، وردة العمر، هو الذي يقيم تلك المملكة، والشَّاعر يريدها بديلة من مملكة تحيل سنوات العمر السِّتين إلى جماجم.

عالم الخيبة ولغته

يبدو أنَّ خيبة الشاعر ذات بعدٍ وطني وقومي، فضلاً عن بعدها الشخصي، ولعلَّ الواقع المتردِّي، على المستوى العام، هو الذي أدَّى إلى تلك الخيبة التي شكلت إحساسه بالفجيعة وبلورته. فهو يرى إلى واقعه بوضوح، فيقول: على سبيل المثال أنَّ «طائر الوقواق»، وهو رمز/إشارة إلى سيادة عالم الخيبة (طائر الوقواق لا يبني عشه بنفسه بل يبيض في الأعشاش المهجور)، يأتي «بثياب من أكلوا إله التمر في زمن المجاعة»، فيحيل شمس الأيام رماداً، فيفرُّ الزمن من الولادة (ص. ٣٤).

لا يكتفي هذا الطائر الغريب بمصادرة أعشاش الآخرين، وإنَّما يتسبَّب في هدمها، فيخاطبه الشاعر بقوله: «فطيورنا مهدومة أعشاشها/يا طائر الوقواق/أين تبيض أنثاك المريضة عندما يأتي المخاض؟!» (ص. ٣٦).

ويتخذ رجالات زمن الخيبة ملامح أخرى، فيخاطبهم الشاعر بقوله: «هم الغاسلون جيوبنا»، أو «الباحثون عن العدالة أصبحوا شققاً بناطحة السحاب...» (ص. ٥٨ و٥٩).

نلحظ تغيُّراً واضحاً في صيغة الأداء الشعري حين يخاطب الشاعر هؤلاء الذين جعلوا «ولادة الزمن» محالاً، إذ تنحو اللغة الشعرية منحى الانسياب المتتالي في لمعات كاشفة ساخرة، كأنَّ الشاعر انفلت أيضاً من التجويد الشِّعري، ليتمكن من مخاطبة الناس العاديين بكلامهم المتداول يومياً، ومن الأمثلة على ذلك:

«يحدِّثني عن الآتي، وروحي مثل سمسمة»/على منقوشة الزعتر،

يماحكني وزر قميصه/ النفطي كُرِّر في مصافينا... فكيف سأرفع/ العينين في وجه يلاكمني!؟ وكيف أبصر في/ خصر مسدسه «يسوِّحني»، وفي بنطالي الغجري أسئلة/ تفكفك في الدجى عنقي...» (ص. ٩٨).

مفارقات بيداء العمر

لعلَّ هذا الواقع هو ما أدَّى إلى تحوُّل نلحظه في ما يأتي:

قال الشاعر: «وفي دمي شجر الناي الجريح/ على أغصانه يتداعى الطير والورق».

ثمَّ قال: «... غرابٌ في دمي نعقا».

إنَّ الفرق جليٌّ بين شجر الناي الجريح... وبين الغراب الناعق... إنَّهما يتناوبان السكن في كيان الشاعر، وهو إنَّما ينطق بما يسكنه، وقد تحوَّل عزفُ الناي إلى عويل قيثارة.

إنَّه لمن المفارقة أن يقدِّم الشاعر المسكون بنظرة ساحرة إلى المرآة وجهاً «تجاعيد الصخور به عويل قيثارة»، وليس عزف ناي جريح، أو صرخة تحدٍّ، وإنَّه لمن المفارقة أيضاً أن يكون عزف القيثارة عويلاً يزيد الليل الحالك قلقاً، ولا يحلِّيه، أو يلوِّن غموضه...

ونسأل: أيحدث ذلك لأنَّ العالم الذي يريده هو العالم الغجريُّ... الذي تلملم شظاياه «قافية تكوَّرت شمسها كي تبدع الغسقا...»، فيواجه بها بيداء العمر، فيكون الجرح عميقاً، ولكنه طيِّبٌ يقدم آهاته وردةً لمن عشقا، أو لمن رأى الخفاش، يجثم فوق آخر لمعة في ضلع خيمتنا الأخيرة، واكتفى بالكزِّ على الشفاه؟

❑ ❑ ❑